وَعْكَةٌ وشعر

وَعْكَةٌ وشعر

كيف تكون حالة المسافر المهاجر حينما يترك مسقط رأسه ومراتع صباه، ومرابع شبابه هارباً بدينه الذي أصبح أغلى شيء عنده؟

كيف تكون حالتُه حينما يعاني من ألم الفراق لوطنه، وحُرْقة الوداع، وحسرة الشعور بعداوة قومه، ومحاربتهم له من أجل دينه الذي خالطت بشاشتُه قلبَه، ومع ذلك يُصاب بالحُمَّى ويعاني من حرارتها اللاَّهبة؟

كيف تكون حالة ذلك المهاجر؟

ترسم لنا صاحبة الحرير الأخضر لوحةً لواحدةٍ من حالات المهاجرين، تقرِّب إلينا الصورة فتقول: «لما قدم الرسول ﷺ المدينة، وُعِكَ أبو بكر وبلال فكان أبو بكر إذا أخذتْه الحمَّى قال:

كلُّ امرئٍ مصبَّح في رَحْلِه
والموت أدنى من شِراكِ نَعْلِه

وكان بلال إذا أقلعتْ عنه الحمَّى رفع إحدى رجليه على الأخرى ثم قال:

ألا ليت شعري هل أبيتنَّ ليلةً
بوادٍ وحولي إذخِرٌ وجليلُ

وهل أرِدَنْ يوماً مياهَ مجنَّةٍ

وهل يبدُوَنْ لي شامةٌ وطفيلُ

يقول: اللهم العن عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأمية بن خَلف، كما أخرجونا من الأرض الصحيحة إلى أرض الوباء، والوجع، فبلغ رسولَ الله ذلك فقال: اللهم حبِّب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشدّ، وصحِّحْها وبارك لنا في صاعها ومدها، وانقل حُمَّاها واجعلها في الجُحْفَة»[1]

هكذا تروي فتاة في السابعة أو التاسعة من عمرها هذا الخبر بهذا الأسلوب الجميل، وبهذه الدقّة في الرواية، وبهذا الحفظ للشواهد الشعرية، والدعاء النبوي الكريم.

وهكذا تنقل لنا وصفاً دقيقاً لحالة أولئك الرجال الذين تركوا ديارهم وأموالهم وأهليهم هرباً بدينهم من جور الكفَّار وجبروتهم.

إننا ونحن في زمن تفصل بينه وبين حالة الهجرة مئات السنوات لا نكاد نستشعر صعوبة ترك الأوطان، والرحيل عنها في أجواء مَشُوبةٍ بالخوف، والقلق من ملاحقة الأعداء وقسوتهم، ولكنَّ عائشة رضي الله عنها تقرِّب إلينا بهذا الخبر تلك الصورة.

(١) مسند عائشة ص: ٦٠.

فالحمَّى تسري في العظام، والألم يعتصر القلوب، ولوعة الفراق ما تزال مشتعلةً في الصدور، وهنا نرى بلال بن رباح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يعبِّر عن هذا الإحساس بلعنه لِعُتاةِ قريش الذين أجبروهم على الهجرة.

إنَّه خبرٌ دقيق العبارة والوصف، جميل الأسلوب؛ فأبو بكر ينشد البيت إذا أخذته الحمى، وبلال ينشد البيتين إذا أقلعتْ عنه الحمى، ولنا أن نتصوَّر حالته وهو رافع إحدى رجليه على الأخرى ينشد البيتين ويلعن عتبة وشيبة وأمية بن خلف، إنها حالة الإنسان الذي بلغ منه الحزن مبلغاً عميقاً، ووصل به الأسى إلى هذه الدرجة من قسوة العبارة وضعف العزيمة.

وهو خبر - أيضاً - مرتَّبٌ متسلسل تبدؤه عائشة رضي الله عنها بالحديث عن الوْعكة التي أصابت أباها وبلالاً، ثم بالوصف لحالتيهما وهما يعانيان من حرارة الحمَّى وحرارة الألم، ثم بالرواية لما كانا ينشدان من الشعر، ثم تتوِّج ذلك كلَّه بما نقلته من دعاء الرسول عليه الصلاة والسلام.

إنها رواية راويةٍ متقنة ماهرة جزاها الله عنا خير الجزاء.

وأخيراً.. ما أجمل هذه اللَّفتة النبوية الكريمة التي روتها لنا عائشة في آخر الحديث، ألَا وهي: التوجُّه إلى الله سبحانه وتعالى في كلِّ الحالات.

فها هوذا رسول الله ﷺ حين بلغه ما قال أبو بكر وبلال يرفع يديه إلى السماء ليدعو الذي يقدر على أن يغيِّر الحالة السيئة إلى ما هو أحسن وأجمل وأكمل، وقد كان ذلك ولله الحمد، إنها توجيه نبوي كريم لكل مؤمن بربه عز وجل ألاَّ يغفل عن دعائه واللجوء إليه في كل الحالات.

يبذل المؤمن الأسباب، ويسلك الطرق المشروعة إلى ما يريد، ويتوِّج ذلك بلجوئه إلى الذي بيده مقاليد الأمور.

إنَّ حياة الرسول ﷺ مدرسةٌ عظيمة لهذا اللجوء إلى الله، فهو بعد أن عاد من الطائف طريداً جريحاً في بدايات الدعوة توجه إلى ربه بالدعاء: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى مَنْ تكلني، إلى بعيدٍ يتجهَّمني، أم إلى عدوٍّ ملَّكْتَه أمري، إنْ لم يكن بك عليَّ غضبٌ فلا أبالي، ولكنَّ عافيتَك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقتْ له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أنْ تُنْزِلَ بي غضبَك، أو يَحلَّ عليَّ سُخْطُك، لك العُتْبَى حتى ترضى، ولا حول ولا قوَّة إلاَّ بك».

وهو بعد أن أعدَّ العُدَّةَ وما استطاع من القوَّة في بدر، وقف في العريش متَّجهاً إلى ربه بالدعاء والبكاء، طالباً منه النَّصر.

هكذا تكون حقيقة الإيمان.